**الأستاذ المسؤول عن المقياس : الأستاذة بن عيسى خيرة .**

**مقياس : الفلسفة السياسية / مادة اختيارية .**

**المستوى السنة الثالثة : LMD s5**

المحاضرة الثانية :الفلسفة السياسية في العصور الوسطى :

إن الكلام عن الفكر السياسي في العصور الوسطى ينقسم إلى اتجاهين هامين في تاريخ الفلسفة ، وهما الفلسفة الوسيطية عند الغرب ، والفلسفة الوسيطية عند المسلمين ، وهي فلسفت تتضمن المرجعية الدينية والفلسفية اليونانية في تكوين بنية هذا الفكر السياسي .

وعليه سنقدم لمحة موجزة عن طبيعة التفكير السياسي الوسيطي في اتجاهيه الإسلامي والمسيحي من خلال نموذجين أساسيين وهما القديس أوغسطين و الفيلسوف الفارابي .

1/التفكير السياسي الوسيطي في الغرب المسيحي:

ارتبط الفكر السياسي في هذه المرحلة ارتباطا وثيقا بالكنيسة التي كانت تقوم على مبادئ الديانة المسيحية ، فكان كل تفكير يسير تحت توجيهها وقراراتها ، لذلك يمكن الكلام هنا عن فكر سياسي لاهوتي ، وهذا من ناحية ، أما من ناحية ثانية لا يمكن إغفال تأثير الفلسفة اليونانية التي كان لها دورها هي الأخرى في صياغة الكثير من التوجهات الفكرية .

إن الديانة المسيحية نشأت في القرن الأول للميلاد ، ومنذ ذلك الزمن بدأت في الانتشار والتوسع ، وقد تزامن ذلك مع ضعف الإمبراطورية الرومانية وانقسامها ثم انهزامها، في هذه المرحلة لم يكن للمسيحية علاقة بالجانب السياسي والسلطة ، لكن ما إن تم الاعتراف بها من قبل الإمبراطور قسطنطين عام 312م كديانة رسمية ، أصبحت في موازاة مع الحكم ، وتدريجيا تزايد نفوذها مع تزايد ضعف الإمبراطورية الرومانية .

إن مبادئ المسيحية ساهمت بشكل أساسي في بلورة وصياغة الفكر السياسي الوسيطي، وأهم نموذج يمكن الكلام عنه في هذه المرحلة هو القديس أوغسطين .

القديس أوغسطين :(354/ 430 م) : عاش هذا الفيلسوف زمن زوال الإمبراطورية الرومانية ، وبروز الديانة المسيحية و انتشارها ، وقد كان لهذه الظروف الحاسمة دور كبير في صياغة فلسفته السياسية ، فهو لم يعتبر أن سقوط روما كان بسبب المسيحية كما أشاع البعض ، بل بالعكس نجده يؤسس لمفهوم المدينة والقانون على مبادئها ومكوناتها الأخلاقية ، فالمسيحية هي النموذج المثالي لتحقيق "مدينة الرب" ، ومن ثمة فسر سبب سقوط روما بعدم قدرة الرومانيين عل التخلص من الأفكار والمعتقدات الوثنية القديمة التي كانوا يعتقدون بها .

إن محاولة القديس أوغسطين في خضم هذا الوضع الذي عرفته أوربا المسيحية كان يتجه نحو التأسيس لنظام أخلاقي سياسي مشترك يخفف من الهوة التي كانت بين أولئك الذين يميلون إلى التدين المسيحي ، وأولئك الذين يعتبرون أن المسيحية هي سبب سقوط ورما ، وهم كذلك الذين كانوا يتمسكون بالمعتقدات الوثنية من الرومانيين الذين أحبوا روما وتعلقوا بحضارتها وتأثروا بسقوطها .

إن هذا التصور الأخير لا يعني أن القديس أغسطين كان ينقد روما كحضارة ، بل هو يعيب على أباطرتها توجههم إلى تحقيق مكاسب الحياة والنفوذ السياسي والحربي ، دون أن يتخلصوا من الوثنية التي أدت بهم إلى الزوال ، ولو كانت وثنيتهم حقيقية وخالصة لحمتهم آلهتهم من الزوال والسقوط .

يفصل القديس أوغسطين في هذه الفكرة الأخيرة كثيرا في كتابه "مدينة الله" ، ومن ذلك قوله :"لا تستند عظمة روما إلى آلهتها ، لأنهم أضعف من أن يحفظوا للمدن عظمتها وهناءها ، وكل مملكة تخلو من العدالة ولا تقيم لها وزنا تصبح مجموعة من زمر النصوص "(مدينة الله ص165.).

على هذا الأساس ستتمحور فلسفة القديس أوغسطين السياسية حول الكلام عن المدينة والقانون والعدالة ، إذ تجمع هذه المفاهيم الثلاثة مجمل تصوراته ، أما المدينة فهو يقسمها إل قسمين الأول أرضي والأخر سماوي ، ومنه يستنتج أن القانون يكون وضعيا ويكون كذلك إلهيا من هذا الأخير ينبع ما يسميه بالقانون الطبيعي ، أما العدالة فهي الفضيلة الأساسية في المدينة إذا تحققت تبعتها كل الفضائل الأخرى .

1/- المدينة / الدولة : يقسم القديس أوغسطين المدينة إلى قسمين : المدينة الأرضية والمدينة السماوية ، وهما مدينتان متعايشتان مع بعضهما البعض وموجودتان في نفس الزمن ، إلا أن هذا الاشتراك لا يعني أنهما بنفس الأهمية والقيمة الروحية .

أما الأولى (المدينة الأرضية) :فهي مدينة البشر الدنيوية مليئة بالنزعات الإنسانية المتجهة نحو تحقيق الرغبات البشرية ، فهي قائمة على مبدأ حب الذات لحد احتقار الرب ، في حين أن " مدينة الرب " سامية غايتها المطلق ، فيها تتحقق السعادة الأبدية وتتحقق كل آمال البشر ورغباتهم ، وبلوغها يكون بالإخلاص لله ونبذ الذات ، فهي دولة روحية تتحقق فيها العلاقة الخالصة بين البشر والرب .

إن مبدأ الإخلاص هو وسيلة من وسائل الشفاعة والمغفرة والتوبة ، فمن كان خالصا صادقا في إيمانه بلغ السعادة الأبدية التي لا تحصل إلا في المدينة السماوية ، والتي هي المدينة الباقية في الأخير ، يقول القديس أوغسطين :" تقوم مدينة الله من أجل سعادتنا والهدف من هذه المدينة هو سعادة الإنسان ... إننا نُكوِّن مع الأرواح مدينة واحدة يقدم فيها الملائكة معنا عبادة لله موحدة " .(مدينة الله ص 455 )

2/ مفهوم العدل عند القديس أوغسطين :

يرى القديس أوغسطين أن العدل أساس الحكم ، به تتحقق المساواة والمصلحة العامة ، وبه تتمثل المدينة الأرضية بالمدينة الإلهية ،"فإذا فُقد العدل أصبحت المماليك جماعة كبيرة من اللصوص " (مدينة الله ص 1 72).

إن العدل إذا كان قائما في المدينة تحققت كل الفضائل الأخرى فهو أساسها ، ويحدث ذلك عندما يلتزم كل فرد بأداء واجبه خدمة لإيمان قائم في داخله ، لا لغاية ذاتية أو منفعة خاصة ، ومن ذلك دور الحاكم الذي يجب أن يسعى وراء ذلك المبدأ ، ويقابله دور المحكوم اتجاهه في طاعته والولاء له وإن كان ظالما ، " لأن الامتثال للملوك ميثاق عام للمجتمع الإنساني ، ومن باب أولى وأحرى يجب الامتثال للإله المالك لكل المخلوقات بدون تردد في كل ما يأمر به ، وفي خصوص سلطات المجتمع الإنساني ، فكما أن السلطة الكبرى مُوَلاَّةٌ على الصغرى كي تُطيعها ، كذلك الإله موَّلى على الكُل "(اعترافات القديس أوغسطين ص54)

أما مصدر السلطة فهو إلهي وليس بشري ، فلا يكون الحاكم حاكما بإرادته بل بتفويض إلهي ، ولا يكون أحد في الدولة على الآخر سيدا بقانون طبيعي ، بل تولي السلطة "وممارستها يكون عن طريق الحظ أو الصدفة أو الانتخاب " ، وهذا يشير إلى العلاقة التي يؤسس لها أوغسطين بين الإلهي والدنيوي ، فكل سلطة أو نظام نابعٌ من تفويض إلهي ، هذا الأخير الذي يتضمن بدوره معنى العناية الإلهية التي تحرس البشر وتنظم حياتهم وأنظمتهم ،" إن العناية الإلهية تنشئ مماليك الأرض "(مدينة الله ص 219.)

ولتوضيح العلاقة بين الإلهي والدنيوي يضيف القديس : إن غاية الدولة (المدينة الأرضية) مادية ذلك لأنها بشرية ، ولأنها تتجه نحو المصلحة العامة وفق مبدأ العدالة فهي بمثابة أداة ووسيلة للكنيسة من خلالها تتحقق العدالة الإلهية ، فالدولة التي لا تخضع للديانة المسيحية لا يمكنها أن تتحقق.

القانون عند القديس اوغسطين : يرتبط تصور القديس أوغسطين عن القانون بالديانة المسيحية ، خاصة في مفهوم الخطيئة ، فيرى أن القانون الوضعي بات ضروريا بعد أن عصا آدم ربه ، به ؛ أي القانون تُضبط سلطة المدينة الأرضية ، وهو قانون متغير بتغير الزمان والظروف البشرية ، لا يجب إهماله فهو يحتاج إلى العناية والاهتمام ، فلا يمكن للسلطة السياسية الوضعية أن تمارس نفوذها الكلي على نظام الدولة ، بل يجب أن تخضع في قراراتها لرقابة السلطة الإلهية التي هي قانون الله (القانون الإلهي/مبادئ المسيحية) في المدينة تَسْتمدها من الديانة المسيحية .

إن القانون الوضعي يجب أن يكون دائما تابعا لمبادئ المسيحية ؛ أي للقانون الإلهي ، فيتكون ويتأسس على القيم الأخلاقية التي تَنُصُّ عليها ، فإذا حدث ذلك خضع الحكام والقادة لمبادئ القانون الإلهي الذي سيطغى على تفكيرهم ويُلهمهم بمسار ممارساتهم السياسية ، وفق مبادئ سامية تسعى إلى المطلق "الرب" لا إلى الذات البشرية ، وهنا يحكم المسيح عن طريق القادة والحكام الماثلين لقانون "الرب" في الأرض .

وفي مقابل القانون الوضعي والقانون الإلهي يتكلم القديس أوغسطين عن القانون الطبيعي الذي يوجد بالفطرة في كل نفس بشرية تستمده من القانون الإلهي ، وهو ما يفسر الطبيعة الخيرة في البشر التي توجههم نحو الجانب الإلهي وتميل إليه ، تَفْسُد هذه الطبيعة البشرية بسيطرة الجانب السلبي الذاتي : مصدر الخطيئة .

إن الطبيعة البشرية إذا تغلبت على الجزء السلبي منها تحقق القانون الإلهي ،" لأن الإنسان (وإن سعد بقانون الإله من جهة الإنسان الداخلي) ، فماذا سيفعل بالقانون الآخر المناهض في أعضائه لقانون عقله والمؤدي به كالسجين إلى قانون الذنب الموجود في أعضائه " (اعترافات القديس أوغوستين) ، نقله من اللاتينية إبراهيم الغربي مراجعة محمد الشاوش التنوير للطباعة والنشر تونس ط2/2015.ص 134.

الدولة عند القديس أوغسطين : لا شك أنه قد تكون لديكم مفهوم الدولة عند القديس أوغسطين من المعطيات السابقة وتلخيص ذلك فيما يلي :

نخلص إلى أن المدينة /الدولة يجب أن تقوم على مبادئ الديانة المسيحية ، لأنها الديانة الحقة في نظره ، والدولة ( المدينة الدنيوية ) ليست مكانا تتحقق فيه السعادة ، بل هي في الحقيقة عقاب من الرب للبشر بسبب الخطيئة الأولى ، ومن ثمة هي مكان لمعاقبة كل من يرتكب الرذيلة ، وهذا لا يعني عدم أهميتها ، بل إن أوغسطين يرى أنها ضرورية لكل اجتماع بشري ، ومن هنا تبدأ الفلسفة السياسية عنده .

إن الدولة ضرورية لتنظيم حياة البشر ، فهي نظام دنيوي تتجسد فيه المدينة الأرضية ، وسلطتها يجب أن تستمد مقوماتها من المسيحية ، مبدؤها الأساسي هو العدل .

نلخص إلى أن مقومات قيام الدولة (المدينة) تكمن فيما يلي :

- الجانب الروحي اللاهوتي متمثلا :في إرساء مبادئ المسيحية ، بأن تكون السلطة المدنية تابعة للسلطة الدينية .

- الجانب الأخلاقي : وذلك في الالتزام بالقيم الأخلاقية والعدالة والمساواة بين الجميع ، والتي تُسْتمد هي الأخرى من مبادئ الديانة المسيحية .

- الجانب الاجتماعي : من حيث أن الاجتماع المدني ضروري لحاجة الإنسان للجماعة ، و من ثمة إلى سلطة تنظيمية بها تقوم المدينة الأرضية .